﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٩٧﴾ [المائدة: 97]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

الـــرّبـــطُ بين تحريمِ الصّيدِ والاعـــتـــداءِ، وتعظيم البيتِ الـــحـــرامِ على المَدَى

مناسبةُ هذه الآيةِ لما قبلَها أنّه "لمّا كان الإحرامُ وتحريمُ الصّيد فيه، إنّما هو لقصدِ تعظيمِ الكعبةِ بيّن تعالى حكمةَ ذلك"[1]، وترتّبَ على ذلك أنّه "كما جعلَ الحرمَ والإحرامَ سببًا لأمن الوحش والطّير؛ جعلَه سببًا لأمن النّاس؛ وسببًا لحصول السّعادةِ في الدّنيا والآخرة، فقال مستأنفًا بيانًا لحكمةِ المنعِ في أوّلِ السُّورة، من استحلالِ من يقصدُها للزّيارة"[2]، فحُرمةُ الكعبةِ وتعظيمُها عامٌّ، ومن يُعظّمُها يُعظّمُ ما جاء به من حُرمةِ الصّيدِ وما إليه؛ لأنّ الإيمان واحدٌ لا يتجزّأ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَعَلَ﴾: فعلٌ ماضٍ، وهو يأتي على عدّةِ أنحاءَ، منه اللّازمُ، ومنه المتعدّي لواحدٍ واثنين، و﴿جَعَلَ﴾ في الآيةِ، يحتمل كونُه متعدّيًا لواحدٍ بمعنى الخلقِ والإيجادِ والإحداث[3]، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، أي أوجدَ الكعبةَ وخلقَها؛ فتكونُ كلمةُ (قيامًا) حالًا، ويحتملُ أن يكونَ متعدّيًا لاثنين بمعنى التّحويلِ والتّصييرِ بالقول، أي صيّرَ الكعبةَ قيامًا للنّاس قولاً وحُكمًا؛ لأنّها موجودةٌ أصلًا قبل الإسلام.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 6/306.
(2) البقاعي، نظم الدّرر: 6/306.
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (جعل).

2) ﴿ٱلۡبَيۡتَ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مجرّدٌ من (بَيَتَ)، وقيل إنّه مصدرٌ منَ الفعل (باتَ يبيتُ)، و"أصلُ البيت مأوَى الإنسان باللّيل، لأنّه يقال: بَاتَ أقامَ باللّيل، كما يُقال: ظلَّ بالنّهار، ثمّ قد يُقال للمسكن بيتٌ من غيرِ اعتبارِ اللّيل فيه"[1]، وهو هنا معرّفٌ بأل والمرادُ هو بيتُ اللّه العتيقُ، وهو مكّةُ[2] وهو المقصودُ في الآيةِ الكريمةِ.

المـــرادُ بالبيتِ بيتُ الله العتيقُ بـمـكّـة، وهـو المعظَّمُ المشرَّفُ على المدَى

3) ﴿قِيَٰمٗا﴾: مصدرٌ للفعل (قامَ، يقُومُ)، "ويُقال هذَا قوامُ الأَمر وملاكُه، المعنى الَّتي جعلَها اللّه لكم قِيامًا تُقيمُكم فتَقومُون بهَا قِيامًا، ومن قَرَأَ (قِيَمًا)، فهو راجعٌ إلى هذَا، والمعنى جعلَها اللّه قيّمةَ الأَشياء، فيهَا تقومُ أمورُكم"[3]، والمقصودُ بالآية ما يَقومُ به صلاحُكم ونفعُكم، وبها تقُومُ أمُورُ دينكُم وحياتكُم.

مـا تـقُـومُ عليه أمُـــورُ الـدّيـن، ومظاهرُ الحياةِ

4) ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾: أصلُه منَ الهاء والدّال والياء، والهديُ مصدرُ الفعل هَدَى يَهدِي، وله أصلان في المعنى؛ الأوّلِ "التَّقدُّمُ للإرشادِ... فالأَوّلُ قولُهم هَديتُهُ الطَّريقَ هدايةً، أي تقدّمتهُ لأُرشدَهُ، وكلٌّ مُتقدّمٍ لذلكَ هادٍ"[4]"، والأَصلُ الآخرُ الهديَّةُ ما أَهديتَ من لُطفٍ إلى ذِي مودَّةٍ"[5]، وكلاهما يَصدقُ على المُفردَةِ الواقعةِ في هذه الآيةِ منَ القرآنِ الكريمِ؛ لأنّ المعنى "ما أُهديَ منَ النَّعمِ إلى الحَرمِ قُربةً إلى اللّه تعالى"[6].

الهَديُ ما أُهديَ مـنَ الـنَّـعـمِ إلى الحَرمِ قُربةً إلى اللّهِ تعالى

5) ﴿وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾: جمعُ تكسير يفيدُ الكثرةَ، مفردُه (قلادة)، وهو الشّيءُ الّذي تضعُه المرأةُ حول عُنُقِها للتّجمُّلِ والتّزيين، أصلُه منَ القاف واللّام والدّال، ومن دَلالتِه هنا هو "تعليقُ شيءٍ على شيءٍ،

(1) الرّاغب، المفردات: (بيت).
(2) الرّاغب، المفردات: (بيت).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قوم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (هدي).

وليّهُ بِهِ"[1]، وهو المرادُ هنا، فإنّ المقصودَ منَ القلائد في الهدي "أَن يُعلَّقَ بعنقِ البعيرِ قطعةٌ من جلدٍ؛ ليُعلمَ أنّهُ هديٌ فيكفَّ النَّاسُ عنهُ"[2]، ففيه إشعارٌ إلى أنّها مُهداةٌ إلى البيت الحرامِ؛ فلا يُتعرّضُ له بشيءٍ، ولا يُساءُ لهُ.

القلائدُ علاماتٌ على الإبل، ليُعلمَ أنّهُ هديٌ فيكفَّ النَّاسُ عنهُ

6) ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾: السّماوات جمعٌ بالألف والتّاء، مُفردُه سماءٌ، وأصلُه من (سَمَوَ)؛ لأنّه منَ الفعل (سَمَا يَسمُو)، فألِفُهُ مُنقلبةٌ عن واو، و"السَّمَاءُ هِيَ سقفُ كُلّ شَيء، وكلِّ بَيت، ورِواقُ البيت، والسّحابُ، والمطرُ، ويُطلقُ على السَّبع، والفلكِ؛ على التِّسع بالعرش والكُرسيّ"[3]، وهي ما يُقابِلُ الأرضَ، وهي أعلى كلِّ شيءٍ، وتكونُ مؤلّفةً من طبقاتٍ؛ لذلك ذُكرت مجموعةً في كثيرٍ من آيِ القرآن الكريم.

7) ﴿ٱلْأَرْضِ﴾: اسمٌ ثلاثيٌّ مجرّدٌ أصلُه الهمزةُ والرّاءُ والضّادّ، ومعناها "الجِرم المقابلُ للسّماء، وجمعُه أرضُون، ولا تجيءُ مجموعةً في القرآن، ويُعبّر بها عن أسفلِ الشّيء، كما يُعبّرُ بالسّماء عن أعلاه"[4]، والمقصودةُ هنا الأرضُ المعروفةُ الّتي يعيش عليها البشرُ.

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

البيتُ الحرامُ رمزٌ للعبوديّةِ والأمنِ ووحدةِ الأمّةِ

فضلُ بيتِ اللّه الحرامِ في مكّةَ وشرفُه، وفضلُ الأشهُرِ الحُرمِ واضحٌ بيّنٌ، وقد بيّن هنا أنّ البيتَ الحرامَ، كما أنّه سببٌ لأمن الوحشِ والطّيرِ، هو سببٌ لأمنِ النّاس منَ الآفاتِ والمخاوفِ، وسببٌ لحصولِ السّعاداتِ في الدّنيا والآخرة[5]، فقد "جعله اللّه سبحانه في مقامِ التّوجُّه إليه، في عبادتِه للنّاس المتفرِّقين في العالم؛ ليحصلَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلد).
(2) الفيّوميّ، المصباح المنير: (قلد).
(3) الكفويّ، الكليّات: (سمو).
(4) الرّاغب، المفردات: (أرض).
(5) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 7/34.

لهم الاجتماعُ الموجبُ للتّآلف الّذي يحتاجون إليه في تمدُّنهم، الّذي به كمالُ معاشِهم ومعادِهم"[1]، ثمّ ذكرَ الهديَ، وهو ما يُهدَى إلى البيتِ الحَرامِ منَ الأنعام؛ لأنّه في وادٍ قفرٍ غيرِ ذي زرع، وثنّى بالقلائدِ جمعُ قلادة، وهي تعبيرٌ عنِ المقلَّد أي ذواتِ القلائدِ، وهي أيضًا الهدي، فتكونُ القلادةُ علامةً، على عدم التّعرُّضِ للهدي أو إيذائه، وفي ذلك إشارةٌ إلى علمِه ﷻ لما في السّموات والأرض، وأنّه يَعلمُ مصالحَكم الدّينيّةَ والدّنيويّةَ فيما يُشرّع لكم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

دَلالةُ الجملةِ المستأنفةِ في قولِه ﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ﴾:

﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾، جملةٌ مستأنفةٌ، تبيّنُ ما قبلَها، وتردُ جوابًا لما قد يردُ على الخاطرِ من أسئلةٍ "عن حكمةِ تحريمِ الصَّيدِ في الحَرم، وفي حالِ الإحرام، بأنّ ذلكَ من تعظيمِ شأنِ الكعبةِ الّتي حُرّمت أرضُ الحرم لأجلِ تعظيمِها، وتذكيرٌ بنعمةِ اللّه على سكّانه بمَا جعلَ لهم منَ الأمنِ في علائقهَا وشعائرهَا"[2]، و﴿جَعَلَ﴾ فعلٌ يدلُّ على المُضيّ.

تعظيمُ شأنِ الكعبةِ، وتذكيرٌ بالأمنِ في علائقِها وشعائرِها

الفعلُ ﴿جَعَلَ﴾ يحتملُ معنى التّحويلِ والتّصيير:

وهذا الفعلُ يأتي في اللُّغة على عدّةِ أنحاءَ[3]، الواردُ في الآيةِ يحتملُ نَوعين من أنواع ﴿جَعَلَ﴾، الأوّل: بمعنى التّصييرِ والتّحويلِ، وهي بذلك تَتعدّى إلى مفعولَين، بعد استيفاءِ فاعلِها، كظنَّ وأخواتِها، ولفظُ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعلٌ، فالجاعلُ هو اللّه، والمجعُول هو﴿ٱلۡكَعۡبَةَ﴾، وهي المفعولُ الأوّلُ لفعل التّصيير جعل، و﴿ٱلۡبَيۡتَ﴾

أثرُ مكوّناتِ التّركيبِ، في إظهارِ عظمةِ الكعبة والمسجدِ الحرامِ

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2161.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/54.

(3) قد يكون أوجدَ وخلَق، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ﴾ [الرعد: 3]، وقد يكون بمعنى الاعتقادِ والظّنّ، كقولِه تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: 19]، وقد يكون بمعنى الشُّروع مثل (جَعَلَ حَادِي الإبِلِ يَحدُو)، وقد تكون بمعنى التّصيير والتّحويل كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورٗا ٢٣﴾ [الفرقان: 23].

عطفُ بيان، أو بدلٌ منَ الكعبة، والأصلُ فيه التّبيينُ والكشفُ والإيضاحُ، إلّا أنّه جاء هنا لأجل المدحِ، فقولُه "البيتَ الحرامَ، عطفُ بيانٍ على جهة المدحِ، لا على جهة التّوضيح"[1]، والمدحُ مُتأتٍّ من أنّها حَرَمٌ آمنٌ، والدّاخلُ فيه آمنٌ، وجعل أيضًا من باب الإطنابِ المفيدِ، ولفظُ ﴿ٱلْحَرَامَ﴾ وصفٌ للبيت، وقولُه ﴿قِيَـٰمًا﴾، المفعول الثّاني للفعل ﴿جَعَلَ﴾، والتّركيبُ كلُّه يَتضافرُ في رقّةٍ ودقّةٍ، لإظهار عظمةِ الكعبةِ المشرّفةِ، والحرمِ الآمنِ المبارَكِ.

قراءةُ ابنِ عامر (قيَّمًا) منَ الإخبارِ بالمصدرِ، وتفيدُ المبالغةَ:

الإسنادُ المجازيُّ في جعلِ الكعبةِ قيامًا للنَّاسِ

يجوزُ أنّ يكونَ الفعلُ ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى الإيجادِ والخلقِ، أي خلقَ اللّه الكعبةَ، وهو أقوَى وأظهرُ "فإنّ اللّه أَوجدَ الكعبةَ، أَي أَمرَ خليلهُ بإيجادهَا؛ لتكونَ قيامًا للنَّاسِ"[2]، وجاء قيامًا على الحاليّة، وهو مصدرُ قام يقومُ، والقيامُ بالشّيء تدبيرُهُ والنّهوضُ به، وإصلاحُه، ومنهُ "هُوَ قيِّمٌ عليهِ، أو قائمٌ عليهِ، فالقيامُ هنَا بمعنى الصَّلاحِ والنَّفعِ"[3]، وقرأ ابنُ عامر بغير ألف أي قِيَمًا[4]، ووزنُه (فِعَل) "وإثباتهُ للكعبةِ منَ الإخبارِ بالمصدرِ للمبالغة"[5]، ومبالغتُه متأتيّةٌ من كونِ الكعبة سببًا لما هم فيه، وليست هي نفسَها من يقوم بالأمر؛ لذلك جُعل التّركيبُ من باب الإسنادِ المجازيّ؛ فهي سببٌ في صلاحهم وصلاحِ غيرهم، ممّن يزور البيتَ العتيقَ حاجًّا أو معتمرًا، وهذه القراءةُ الدّالّةُ على المبالغة، متناسبةٌ أشدَّ المناسبةِ مع وجوه كَونِ الكعبة سببًا لقيام مصالحِ النّاس، وهي احتياجُهم الماديّ من بيعٍ وشراءٍ ونحوِه، وكونُها حرمًا آمنًا للجميع على أنفسِهم

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/298.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/54.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/56.
(4) ابن الجزري، النّشر: 2/247.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/56.

وأموالِهم، وأنّهم صاروا بسببها أهلَ الله وخاصّتَه، وجعلها قوامًا لهم في دينهم، فـ"لا يبعدُ حملُ الآيَةِ على جميعِ هذهِ الوجوهِ...إمَّا بكثرَةِ المنافعِ...وإمَّا بدفعِ المضارِّ...وإمَّا بحصولِ الجاهِ والرّيَاسةِ... وإمَّا بحصولِ الدّينِ"[1].

الألفُ واللّامُ في قولِه: ﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾، إمّا جنسيةٌ وإمّا تعريفيّةٌ:

﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾، فالواو للعطف، و﴿وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ﴾ معطوفٌ على الكعبةِ، والألفُ واللّامُ فيه قد تكونُ جنسيّةً؛ لأنّه ليس شهرًا واحدًا بل أربعةٌ (ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم ثمّ رجب)، ثلاثةٌ سردٌ، وواحدٌ فردٌ، والحرامُ وصفٌ للشّهرِ، وقد تكونُ لتعريفِ "الشّهر الّذي يُؤدَّى فيه الحجُّ، وهو ذو الحِجّة؛ لأنّ اختصاصَه من بين الأشهُرِ بإقامةِ موسمِ الحجِّ فيه شأنٌ قد عرّفه الله تعالى"[2]، وهو أظهرُ؛ فإنّ المَلحظَ هنا أنّه جمعَ في هذه الآيةِ حُرمةَ المكانِ، وأتبعَها بحُرمة الزّمانِ، وعطفَ الشّهرَ الحرامَ على البيتِ الحرامِ، من بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ فإنّ الشّهرَ الحرامَ من علائقِ البيتِ الحرامِ، بجانب العلائقِ الأخرى التّي اكتسبت صفةَ القداسةِ والتّحريمِ منَ الكعبةِ، مع ملاحظةِ أنّه قد قدّم حُرمةَ المكانِ؛ لأنّها متعلّقةٌ بفعلِ الجَعلِ؛ ولأنّ وجودَ البيتِ الحرامِ سببٌ في الشّهرِ الحرامِ.

عطفُ الشّهرِ الحرامِ على البيتِ الحرامِ، عطفُ الخاصِّ على العامِّ

عطفُ لفظَي ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾ و﴿وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ﴾، وهُما رمزٌ للحمايةِ، وأمانٌ للهدي ووقايةٌ:

جاء بالمعطوف الثّاني وهو ﴿وَٱلۡهَدۡيَ﴾، وهي الإبلُ ونحوُها غالبًا؛ لأنّ ثوابَه أكثرُ، وله بهاءٌ ورونقٌ في الحجّ، فهو الّذي يُساق للكعبةِ، فلا يمسُّه أحدٌ، كنايةً عنِ الأمن والأمان؛ فإنّه في حرمِ الله "ويذبحُ

الحذفُ يحدّدُ الملمحَ التّأويليَّ، وحذفُ ما يُعلمُ جائزٌ عندَ العربِ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/107.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 2/299.

هناكَ، ويفرَّقُ لحمُهُ على الفقراءِ؛ فيكونُ ذلكَ نُسُكًا للمُهدي، وقوامًا لمعيشةِ الفُقراء"[1].

ثمّ المعطوف الثّالث ﴿وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾، وقد وردت في أوّلِ السّورةِ ووردت في هذه الآيةِ، وقد "كان الرّجلُ إذا خرج يريدُ الحجَّ تقلّدَ من لِحاء السّمُرِ، أو غيرِه شيئًا، فكان ذلك أمانًا له"[2]، وهو جمعٌ مكسّرٌ من نوعٍ يُسمّى مُنتهى الجُموعِ، مفردُه قِلادةٌ، وهو على حذفِ مضافٍ، التّقديرُ "ذوات القلائد وهي البُدنُ"[3]؛ لأنّ القلائدَ ليست مقصودةً لذاتِها، إنّما هي دَلالةٌ ورمزٌ كانوا يتّخذونَه طَقسًا يَحتمون به، ويأمَنونَ على هديهم عندَ الإحرامِ، فهذه الثلاثةُ ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ﴾، ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾، ﴿وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾ معطوفةٌ على الكعبةِ، فإن كان فعلُ الجَعلِ بمعنى الإيجادِ والخلقِ، كانت قيامًا للنّاس أيضًا، فحُكمُ المعطوفِ هو نفسُه حُكمُ المعطوفِ عليه؛ لأنّه لما أصبحتِ الكعبةُ قيامًا للنّاس بفعل الجَعلِ أصالةً، أصبحت هذه الثّلاثةُ أيضًا قيامًا للنّاس، بفعل التّبعيّة، كقولنا (قرأ زيدٌ وعمرٌو)، والمعنى (قرأ زيدٌ وقرأ عمرٌو)، وإن كان فعلُ الجَعلِ بمعنى التّصييرِ والتّحويلِ، فهاهنا عُطفت هذه الثّلاثةُ، على المفعول الأوّل ﴿ٱلْكَعْبَةَ﴾، ممّا يُوجبُ أنّ يكونَ لها مفعولٌ ثانٍ، على تقديرِ: جعل اللّه الكعبةَ البيتَ الحرامَ قيامًا للنّاس، والشّهرَ الحرامَ والهديَ والقلائدَ قيامًا للنّاس أيضًا[4]؛ لأنّ هذه الثّلاثةَ أيضًا، داخلةٌ في كونِها ممّا يقيمُ أودَ النّاس؛ ولأنّ المحذوفَ مذكورٌ فيما مضى، وحذفُ ما يُعلمُ جائزٌ عند العرب.

علّةُ تقديمِ الكعبةِ على الشّهرِ الحرامِ والهديِ والقلائدِ:

التّنويهُ بأهميّةِ الكعبةِ وما يرتبطُ بها من مشاعرَ أو شعائرَ

قدّمَ السّياقُ الكعبةَ، وأخّرَ الشّهرَ الحرامَ والهديَ والقلائدَ؛ "لأنّ هذهِ الثّلاثةَ إنّما صارت سببًا لقوامِ المعيشةِ لانتسابها إلى البيتِ الحرامِ"[5]، إذ في تقدُّمِ لفظةٍ على أخرى سببٌ، فتقديمُ ما قُدّم من قوله: ﴿وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ﴾، هو بحسب الأهمِّ والأقربِ للكعبةِ البيتِ الحرامِ، فالشّهرُ الحرامُ أقربُ بجامعِ الحُرمةِ، والهديُ

(1) ابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 7/538.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/244.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2161.
(4) السّمين، الدّرّ المصون: 4/433.
(5) الرّازي، مفاتيح الغيب: 12/108.

بعده في الأهميّةِ، ثمّ القلائدُ، فلذلك "هيَ من أَقَلِّ آثارِ الحجِّ"[1]، والّتي قد تكونُ موجودةً في عصر، ولا تكون كذلك في عصرٍ آخرَ.

دَلالةُ اسمِ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾، في قوله: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾، الآية:

ارتباطُ الأوجُهِ الإعرابيّةِ بالدَّلالاتِ المعنويّةِ

اسمُ الإشارة في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ له عدّةُ أوجهٍ منَ الإعراب الّذي يَستتبعُ تعدّدَ المعاني، فقد تكونُ ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأً خبرُه محذوفٌ، تقديره: ذلك الحكمُ هو الحقّ لا غيرُه، وقد يكون ذلك خبرًا لمبتدأ محذوف، تقديره: الحكمُ الّذي قرّرناه ذلك، ويمكنُ أنّ يُجعلَ اسمُ الإشارة منصوبًا بفعل تقديره: شرعنا ذلك[2]، وفي كلٍّ ذلك فإنّ اسمَ الإشارة له دورُ الرّبطِ بين ما تقدَّم من أحكام، وما تأخّرَ من أعلام، وممّا سبقَ فهي متساويةُ الأوجُهِ، ولا يُمكنُ ترجيحُ أحدِ الأوجُهِ على الآخَرِ، بجامعِ أنّ كلَّها على تقديرِ محذوفٍ، إلّا أنّه على صعيدِ الصّناعةِ النّحويّةِ، يُمكن القولُ إنّ الوجهَ الأوّلَ أقوى وأظهرُ منَ الوجهين الآخَرَين، فالوجهُ الثّاني حُذفَ فيه المبتدأ، وهو ممّا يضعّفُ التّركيبَ؛ لأنّ المبتدأ عُمدةٌ، فيضعفُ التّركيبُ بحذفِه، وكذا الوجهُ الثّالث حُذف فيه الفعلُ والفاعلُ، وهما عُمدةٌ أيضًا، وحذفُ العُمدةِ ممّا يُخلّ بالتّركيب، مع أنّ له تعلّقًا بالمعنى، التّقديرُ: (فَعَلنَا ذَلِكَ لِتَعلَمُوا)، ذكره غيرُ واحدٍ منَ المفسّرين[3]، فثبتَ أنّ الوجهَ الأوّلَ الّذي حُذف فيه الخبرُ، هو الأقوى؛ فيكونُ التّقدير: ذلك "تصييره الكعبةَ البيتَ الحرامَ قيامًا للنّاس، والشّهرَ الحرامَ والهديَ والقلائدَ"[4]، كلّ ذلك وغيرُه جُعل لكم قيامًا ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ اللّام للتّعليل، والفعلُ تعلموا للمخاطَبين، أي لتعلموا وتتأمّلُوا وتفكّروا في كُلّ ما صيّرهُ لكُم.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/58.
(2) العكبري، التّبيان، ص: 463.
(3) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 12/108، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 8/224، وغيرهم.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 11/94.

بَلاغةُ الالتفاتِ منَ الغيبة ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾ إلى الخطاب ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾:

الـغـايـةُ مـنَ الالتفات التّنبيهُ على أمرٍ مُهمٍّ، وتطريةٌ لنشاطِ السّامعِ

وفيه التفاتٌ منَ الغيبة إلى الخطاب؛ فقد ذكرَ قبلَه ﴿قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ﴾، وهذا على جهة الغيبةِ، ثمّ قال: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾، وهذا على جهة الخطاب، والغايةُ منه التّنبيهُ على أمرٍ مهمٍّ، والتّطريةُ لنشاط السّامعِ، حتّى لا يبقى على سَنَنٍ واحدٍ منَ الكلام غيبةً أو خطابًا، وقولُه: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾، فعلٌ مُسنَدٌ لواو الجماعة منصوبٌ، بأن مُضمرة، والتّقديرُ: (لأن تعلموا) وأنّ وما بعدها مقدّرةٌ بمصدرٍ مجرورٍ بحرف التّعليل، أي للعلمِ لأنّه تعالى فعل "ذلك لعلمِه بما فيه من صلاحِ شؤونِهم، وليعلموا كما عَلِمَ ما فيه منَ الخيرِ لهم"[1]، والوصلُ ظاهرٌ بين هذا الفعلِ وما سبقَه؛ لأنّ التّعليلَ "اتّصالٌ وليسَ باستئنافٍ؛ لأنّ الاستئنافَ انفصالٌ وليسَ في الكلام السّابقِ ما يصلحُ لأن تتعلّقَ به لامُ التّعليلِ، إلّا قولهُ جعلَ"[2] فحسُنَ الوصلُ ههنا، وهو ركنٌ من أركانِ بلاغةِ العربِ في كلامِها.

الجملةُ الاسميّةُ أقوى دَلالةً منَ الفعليّة، في تقريرِ الحقائقِ العقائديّةِ:

الجملةُ المتعلّقةُ بـعـلـمِ الـلـه مـؤكّـدةٌ بـ(أنّ)، عـلـى خـلافِ المتعلّقةِ بعلم غيرِه

﴿ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، هذا الفعلُ منَ الأفعال اليقينيّةِ التي تنصبُ مفعولين وهما (اللّه يَعلَمُ)، ودخولُ أنّ بعد ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾، جعلَ الجملةَ الابتدائيةَ (اللّه يَعلَمُ)، تسدُّ مَسدَّ المفعولَين، فضلًا عن أنّ الحرفَ (أنّ) أكّدَ مضمونَ الجملة، فثمّةَ فرقٌ بين علمِه تعالى، وعلمِ المخلوقين، وثمّةَ تناظرٌ بين ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ و(أَنَّ اللّه يَعلَمُ)، فالجملةُ المتعلّقةُ بعلمِ البشرِ، جملةٌ فعليّةٌ، بينما الجملةُ المتعلّقةُ بعلمِه تعالى جملةٌ اسميّةٌ، والاسميّةُ أقوى دَلالةً، وأثبتُ معنًى منَ الجملةِ الفعليّةِ، ناهيك عن كونِ الجملةِ المتعلّقةِ بعلمه تعالى، مؤكّدةٌ بـ(أنّ)، والأخرى غيرُ مؤكّدة، والأمرُ

(1) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن، ص: 52.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/59.

الآخرُ أنّ الجملةَ المتعلّقةَ بعلمِه تعالى علّقتِ[1] الجملةَ الأُولى عنِ العملِ لفظًا، فكأنّ علمَه تعالى حاجزٌ عن عِلمِ البشرِ، مُتحكِّمٌ فيه، وهو كذلك، وينبغي معرفةُ أمرٍ أنّ لامَ التّعليلِ في قوله: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾ هنا ليست للعِلمِ فقط، "لأنّ لامَ العلّةِ لا تدلُّ على انحصارِ تعليلِ الحُكمِ الخبريِّ في مدخولِهَا، لإمكانِ تعدُّدِ العللِ للفعلِ الواحدِ... وإنّما اقتصرَ على هذهِ العلّةِ دونَ غيرِها لشدَّةِ الاهتمامِ بهَا"[2].

التّعبير بـ(ما) الموصولة للعاقل وغيره في ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، نجدُ (ما) موصولةً تشملُ العاقلَ وغيرَه؛ فإنّ علمَه يحيطُ بكلّ شيءٍ، ويطالُ الجميعَ بلا استثناءٍ، وتقعُ مفعولًا للفعل (يَعلَمُ)، وكرّر(ما) ههنا، تنبيهًا وتوكيدًا وتفصيلاً؛ فإنّ ما هو موجودٌ في السّموات، يختلف عمّا هو موجودٌ في الأرض؛ لأنّ علمَه تعالى يشملُ الجميعَ، ويحيطُ بكلّ شيءٍ في السّموات والأرض، ولكي لا يتوهّمَ مُتوهّمٌ، أنّ علمَه يشملُ العمومَ لا الخصوصَ، كرَّر ما لـ" أنّ التّكرارَ إذا كان لاقتضائه معانيَ مختلفةً فهو حسن"[3] والقاعدةُ أنّ التّفصيلَ يقتضي التّكرارَ، والتّكرارُ يقتضِي الإحاطةَ والشُّمولَ.

دلالة تكرار لفظ(ما)، لاقتضاء الإحاطة والشّمول

علّةُ تقديمِ لفظِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على لفظ ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ في الآية:

وفي بابِ الرُّتبةِ قدّمَ الحقُّ ﷻ السّماواتِ على الأرض، لعدّةِ أسبابٍ، منها التّعظيمُ، فإنّ مُلكَها أعظمُ شأنًا، وأكبرُ سلطانًا منَ الأرض، ومنها الفضلُ والشّرفُ، فإنّها مُشتملةٌ على الملائكةِ والأنبياءِ والمرسلينِ، وعلى الكُرسيّ والعرش، ونحوِ ذلك، ممّا لا ريبَ

مراعاةُ الرُّتبةِ في الخطابِ وذكرُ الأَولى بالتّقديمِ، له مزيّةٌ بلاغيّةٌ

(1) التّعليقُ: من خصائصِ أفعالِ اليقين، مثل عَلم ودَرى وسواهما، فحقُّ هذه الأفعال أن تتعدّى لمفعولين أصلُهما المبتدأ والخبَر إلاّ أنّ دخول بعض الأدوات، يمنع من عملها لفظًا، ويبقى المعنى قائمًا، كقولنا: علمتُ الحقَّ واضحًا، فعند دخولِ أنّ المؤكّدةِ، تقول: علمتُ أنّ الحقَّ واضحٌ، فالجملة الابتدائيّةُ هنا سدّت مسدَّ المفعولين، وهو يُسمّى التّعليقَ في باب ظنّ وأخواتها. السّيوطيّ، همع الهوامع: 1/556.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 7/59.

(3) ابن جماعة، كشف المعاني، ص: 141.

في فضلَه وشَرفِه، وعُلوِّ مكانتِه ومنزلتِه، ومنها القِدمُ والأوليّةُ فإنّ السّماءَ موجودةٌ قبل الأرض ببراهينَ وأدلةٍ كثيرةٍ، لا يحدُّها حصرٌ ولا بيانٌ.

تذييلُ الآية بقولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾:

السّياقُ الجارِي على تكرُّرِ لفظِ العلم، يستوجبُ ختامَ الآيةِ بلفظ (عَلِيمٌ)

لقد ختمَ الحقُّ ﷻ الآيةَ، بقولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، وهو تذييلٌ جميلٌ لما مرَّ منَ السّياقِ الجارِي، على العلمِ من لدُنِ قولِه: ﴿لِتَعۡلَمُوٓاْ﴾، ثمّ قولِه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾، حتّى ختمَها بقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾، وهذا التّركيبُ معطوفٌ على ما سبقَ، بحرف العطفِ الواو، وهو وإن كان ليس للتّرتيبِ، إلّا أنّ الجملةَ هنا جاءت مرتّبةً على سابقتِها، فقولُه: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، توطئةٌ لقوله: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، لأنّه إذا كان عالمًا بما في السّمواتِ وما في الأرضِ، لا يردُ على علمه شيءٌ، بدَلالةِ تَكرار (ما)، فإنّه إذ ذاك عالمٌ بجميع المعلوماتِ صغيرِها وكبيرِها.

مفهومُ المؤكّداتِ في قولِه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾:

أكّدَ الجملةَ بـ: ﴿وَأَنَّ﴾ الدّاخلةِ على الجملةِ الاسميّةِ، ولفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهَ﴾، اسم إنّ، وههنا إظهارٌ مقامُهُ الإضمارُ، فقد جاء بلفظِ الجلالةِ، والأصلُ إضمارُه، وقولُه: ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لأنّه مذكورٌ آنفًا، لكنّه أظهرَه تعظيمًا وتخويفًا وتنبيهًا، إلى إحاطتِه تعالى بكلِّ ما أنتم عليه، فهو "لا يخفى عليه شيءٌ من أمورِكم وأعمالِكم، وهو مُحصيها عليكم، حتّى يجازيَ المُحسنَ منكم بإحسانه، والمُسيءَ منكم بإساءتِه"[1].

أكّدَ الجملةَ بـ(أنّ) الدّاخلةِ على الجملةِ الاسميّةِ، وأقامَ الإظهارَ مقامَ الإضمارِ

قولُه تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾، دالٌّ على العُمُوم:

﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ﴾، الباءُ حرفُ جرٍّ، و﴿كُلِّ﴾ منَ الألفاظِ الدّالّةِ على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 11/94.

العُموم، وقد أضافَها إلى ﴿شَيْءٍ﴾، وأعطى التّركيبُ عُمومَ علمِه تعالى، بعد أن كان مخصَّصًا بما في السّموات وما في الأرض، وغايةُ التّعميم بعد التّخصيص هو التّوكيدُ[1].

أعطى التّركيبُ عمومَ علمِه تعالى، بعد أن كان مخصَّصًا بما في السّموات والأرض

دَلالةُ الصّفةِ المشبّهةِ ﴿عَلِيمٌ﴾، على ثبوتِ علمِه الأزليّ:

ثمّ ختمَه بقوله: ﴿عَلِيمٌ﴾، وهو صفةٌ مشبَّهةٌ زِنةُ (فَعِيل)، الدّالّةِ على الثّبوتِ، أي أنّ علمَه تعالى ثابتٌ في الأزلِ، بما كان وما هو كائنٌ وما سيكون، وقد قدّمَ قولَه: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾، على قولِه: ﴿عَلِيمٌ﴾ ليفيدَ الاهتمامَ، وأنّ علمَه محيطٌ بالأشياء جميعًا، وبالمخلوقات قاطبةً، ومراعاةً لرُؤوس الآي أيضًا.

تقديمُ الجارِّ والمجرور على الصّفةِ، للاهتمامِ ومُراعاةِ رُؤوسِ الآي

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 6/2162.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع، سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 9 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-61-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 9 : سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-61-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3504784 بتاريخ 2023/03/27م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»